

Article

الخصوصية الثقافية للنص الأدبي في عصر التواصل الافتراضي

د / هالة مكرم -مدرس الأدب والنقد العربي

hamakram@yahoo.com

Received: 1-07-2021; Accepted: 1-08-2021; Published: 21-09-2021

المخلص: تهدف هذه الورقة البحثية إلى دراسة مسألة الخصوصية الثقافية للنص الأدبي في ظل الوضع الراهن لعصر التواصل الافتراضي، ذلك العصر الذي يدفع المجتمعات الإنسانية دفعا إلى ثورة تغيير جذرية في كافة شؤون حياتها: تغييرا يواكب حركات التطوير المعرفية والتقنية المتسارعة، والتي جمعت ثقافات العالم كله في شبكة عنكبوتية واحدة، وبناء عليه تواجه الهوية العربية للنص الأدبي تهديدا حقيقيا في أصولها الفكرية، وتقاليدها الفنية؛ نتيجة انخراطها دون إرادة في العولمة الثقافية. وباتت العديد من التساؤلات التي تشغل فكر الباحثين عن حال الخصوصية الثقافية للنص الأدبي آنذاك. من هنا اهتمت هذه الورقة البحثية بعرض أبعاد الخصوصية الثقافية للنص الأدبي العربي، وأيضا تقديم لنظرية النسبية الثقافية كطريق مشترك بين الثقافات المتنوعة، وتقديم رؤية جديدة؛ لكيفية المقاربة المنهجية بين الخصوصية الثقافية والتناقض العولمي للنص الأدبي. فالأدب وحده هو الذي يتمكن من رسم خطوط الحدود الجغرافية للخصوصية الثقافية للأمة، وهو نفسه الذي يوثق لحركة التلاقح الثقافي في عصر التواصل الافتراضي.

Abstract: This research paper aims to study the issue of the cultural specificity of the literary text in light of the current situation of the era of hypothetical communication, that age that pushes human societies to push for a revolution of radical change in all affairs of their lives. A change that keeps pace with the accelerating knowledge and technical development movements that have gathered the cultures of the whole world into a single spider web, and accordingly the Arab identity of the literary text faces a real threat in its intellectual origins and the artistic traditions of the text, as a result of its unwilling involvement in cultural globalization. And many of the questions preoccupy researchers about the state of the cultural specificity of the literary text at that time. Hence, this research paper focused on presenting the dimensions of the cultural specificity of the Arabic literary text, and also an introduction to the theory of cultural relativism as a common path between the various cultures, and to present a new vision. How to approach systematically between the cultural specificity and the global acculturation of literary text. Literature alone can draw the geographical boundaries of the cultural specificity of the nation, and it is the same that documents the cultural cross-fertilization movement in the era of virtual communication.

الكلمات المفتاحية: الخصوصية الثقافية- النسبية الثقافية- النص الأدبي- التواصل الافتراضي .

I. المقدمة

يرتبط إنتاج النص الأدبي بعناصر خاصة داخلية تشمل العديد من الأنساق: النسق اللساني، الذي يمثله وحدات النظام اللغوي؛ لتركيبة النص، والنسق الثقافي الذي يوظف مستوى الفكر وممارسة المعتقد في مجتمع بعينه، والنسق الفني الذي يخضع للتقاليد الخاصة بالهوية الأدبية، وتجتمع هذه الأنساق في عملية واحدة تفاعلية، فتتمو بنية نظامية توظف لزمكانية النص الأدبي . لكن يواجه النص الأدبي-الآن- في عصر التواصل الافتراضي نسقا مغايرا، وهو (النسبية الثقافية)، الانفتاح على الحقول المعرفية، والانخراط دون إرادة في العولمة الثقافية، وباتت الخصوصية الثقافية التي توفر للفرد الهوية المتماسكة مهددة الأركان، أمام التنوع الثقافي الذي يعمل حتما على وحدة النفس البشرية .

فتهدف هذه الورقة البحثية إلى عرض ملامح النسبية الثقافية، وتبحث عن إجابة للتساؤلات: هل تؤثر قنوات التواصل الافتراضية على الهوية الثقافية للنص الأدبي؟ وكيف تُحفظ الخصوصية الثقافية للنص الأدبي في ظل عولمة الوعي الفردي، وبناء مدركات وتجارب شعورية مستحدثة بفعل التواصل الافتراضي؟ وتعرض لذلك من خلال دراسة الموضوعات الآتية:

- 1- أبعاد الخصوصية الثقافية والمشارك الإنساني في النص الأدبي.
- 2- مسارات النسبية الثقافية للنص الأدبي في عصر التواصل الافتراضي.
- 3- المقاربة المنهجية بين النظام الثقافي الخاص والتناقض العولمي في النص الأدبي.

وتعرض لذلك تفصيلا بالدراسة فيما يلي:

أولاً: أبعاد الخصوصية الثقافية والمشارك الإنسانية في النص الأدبي

تختلف المجموعات الإنسانية باختياراتها الثقافية، وهذه الاختيارات هي مجموعة المبادئ والمعتقدات الفكرية والعقائدية التي تطبقها للحياة، في إطار محكم الإغلاق على نفسها، رغم أنها تتسم بالديناميكية والقابلية للتطور بمرور الزمن، وبذلك تتميز المجتمعات بعضها عن بعض، ويأتي الأدب بدوره شاهداً على وقائع هذه الحياة، فيُدون ملامح الواقع، ويصور الحقائق في نصوصه بلغة الفنية البليغة؛ ويؤرخ لكل حقبة زمنية اختياراتها، ويحفظ لها تراثها الثقافي ومنجزها الفكري مسطوراً للأجيال القادمة، وبذلك تحيا لهذه المجموعات الإنسانية هويتها الثقافية.

وإذا ذهبنا لقراءة النصوص الأدبية لهذه المجتمعات الإنسانية؛ فنحن بصدد التحقق من هويتها الثقافية، يقول د. نادر كاظم: "يتشكل الفرد والجماعة معاً في هويتهما من خلال الاستغراق في السرديات والحكايات التي تصير بالنسبة لهما بمثابة تاريخهما الفعلي، والسرد هنا يتجاوز دلالاته التقنية التي تحصره في أشكال السرد التخيلي المعهودة كالرواية والقصة والمحملة؛ ليعبر عن مفهوم أنطولوجي أوسع بما ينطوي عليه من فعالية تحكّم كل ما يحدث في الزمان، ويتعاقب فيه وينتظم داخله وفق صيغة معينة. والسرد - بهذا المعنى - ليس هو قرين الوجود فحسب، بل هو الشرط الضروري لهذا الوجود، وذلك من حيث هو تعبير عن شكل الوجود في العالم، وطريقة التموضع في الزمان."

ولكن مع التطور التكنولوجي، ووقوع الانفجار المعرفي، تولدت فوضى فكرية أصابت العالم بأسره بحُمى التواصل الافتراضي، وأحدثت صراعات مُحتمة على أنماط الحياة وفكر المجموعات الإنسانية، وهي حرب - بالتأكيد - تغايرت مسعاها من احتلال الحدود الجغرافية، إلى احتلال حدود الهوية الثقافية للمجتمعات وبالأخص المجتمع العربي والثقافة الإسلامية، وبالطبع الغلبة للثقافات ذات السلطوية الفكرية المنهجة، في توظيف قنوات التواصل الافتراضي، وإحداث الجدالات الحامية مع الثقافات الأخرى، والنتيجة حتمية هيمنة ثقافة مجتمع معينة أمام مجتمعات أخرى لا تمتلك عزيمة الاستقلال، ولعل المجتمع العربي واحد من هذه المجتمعات التي تُسلب هويتها الثقافية، وتُسرق وحدتها الوطنية؛ تحت شعار ثورات التجديد.

وعند تتبع مفهوم الثقافة للوقوف على ماهيتها الأصلية كما في العلوم الإنسانية وجدنا أنها: "عبارة عن نماذج نمطية فكرية واقعية، وخيالية تظهر في اللغة المقتنة، واللغة الرمزية، وتظهر في سلوك الفرد والجماعة خلال الزمن... وتظهر صورة هذه النماذج النمطية في كافة مجالات الحياة، العرف والعادات والمعتقدات والفن والاخلاق والمشاعر وكافة أنشطة الحياة المجتمعية السياسية والاقتصادية والقانونية والمعرفية ... فالثقافة هي المنهج لكل دوائر النشاط الإنساني داخل مجتمع بعينه، وتتشكل الوحدات الأساسية في البنية الثقافية في الفن والأدب والموسيقى وشتى صور الإبداع في فترة تاريخية ما".

فتعد الثقافة أنماطاً خاصة بالمجتمع، وترتكب بشكل أساسي على قدرة هذا المجتمع على عزل نفسه، وممارسة أفراده أنشطتهم الحياتية الإنسانية بطريقة خاصة اختيارية. فهذه الخصوصية الثقافية إذن مرتبطة بشكل كامل بالعزل، وهذا ما يتعدى تحققه في عصر التواصل الافتراضي، لأن البنية الأساسية فيه قائمة على الانفتاح، وشتان بين النقيضين (العزل والانفتاح)، وهو السؤال الذي طرحه هذه الورقة البحثية للمناقشة، كيف سيغير النص الأدبي عن ثقافته الخاصة في ظل انفتاح عشوائي على ثقافات أخرى مغايرة ومتنوعة؟ وهل هناك مسؤولية والتزام على كاتب النص الأدبي تجاه مجتمعه للحفاظ على هويته؟

يقول رينيه ويليك في كتابه نظرية الأدب: "إن الحقيقة بالأدب هي بعينها الحقيقة خارج الأدب أي المعرفة المنسقة التي يمكن تحقيقها علناً"، وأن وظيفة كاتب النص الأدبي: "ليست اكتشاف المعرفة وبسطها، وإنما وظيفته الحقيقية أن يبصرنا بما نراه، وأن يصور ما سبق لنا معرفته نظراً أو عملاً"، وهنا تكمن الإشكالية، عن أية حقيقة سيصيرها كاتب النص والمجتمع الذي حوله الآن افتراضياً؟ وأية معارف سيغير عنها نظراً، وكل ما يعرفه أصبح مبعثراً وسط الأنماط الثقافية المتعددة؟ وماذا يصور وكل وقائع الحياة عملاً هي لقطة فوتوغرافية مصطنعة الملامح، ومزيفة الأركان على صفحات التواصل الاجتماعي؟ فمن الصعب الآن وضع حدًا فاصلاً بين الواقع الافتراضي، إلا إذا تمسك كاتب النص الأدبي بأبعاد الخصوصية الثقافية للنص الأدبي وحافظ على أركانها الأساسية، وأهمها:

1- الميراث الثقافي والفكري للنص الأدبي:

إن تراثنا العربي هو ثروتنا من (الفنون، والآداب، والمعارف، والعلوم)، وهو ميراثنا الإنساني الذي يتبادل تأثيره وأثره الأجيال المتوالية، وهذا الميراث مصاناً بأقلام الأدباء والكتاب في منجزهم الأدبي، وذلك حتى فرض عصر التواصل الافتراضي على المجتمع انفتاحاً، لا يقتصر الأمر فيه عند حدود المشاركة، والتلاقح المعرفي بين الثقافات المتعددة، وإنما برزت أفكاراً تروج بشكل سلطوي؛ تُشنهج محو الخصوصية الثقافية العربية؛ للذويان في الثقافة الغربية المادية، وقد يكون الأمر ليس باليسير على حد قول د. بشير عبد الفتاح لأن: "ميراثنا الثقافي والحضاري قادر على التصدي لمحاولات طمسه والنيل منه، ومن ثم نبالغ في تقدير الآثار السلبية للتفاعل والانخراط الثقافي والحضاري مع العالم الخارجي"، لكن ماذا عن حالة الثقافات التي تتخلل الفكر عبر قنوات الاتصال الافتراضية، حتى لو كان الميراث الثقافي جداراً منيعاً فتحتما ستعرض النصوص الأدبية للامعيارية أي: "التغيير في درجة القيم والمعايير الأدبية، بحيث تصبح غير قابلة للتحديد والتعريف، ويصعب الوصول إلى اتفاق بين النقاد بشأن ميزان العمل الأدبي والفني، ويؤدي هذه التغيير إلى عدم استقرار القواعد أو الأسس النقدية."

من أجل ذلك كله نرى أن التمسك بالتراث الثقافي منوهاً في كتابة النص الأدبي هو الوسيلة الأساسية للاتصال الفكري بين الأجيال، لأن الخطاب فيه إدراكي تراكمي يجمع في جديده ما يتلاءم مع ثقافة المجتمع الظاهرة، ويحافظ في أصالته على أنساقه الثقافية المضمره، ويترك لمتلقي هذه النصوص العنان للتفاعل مع قيم النص الأدبي المعرفية والثقافية، فيجد فيه المعارف عليه في واقعه الحياتي، ويقرأ الموروث من ذاكرة الأجيال السابقة، فيتمكن الأديب من أدواته الفنية لكتابة النص العربي، ويُمكّن أفراد مجتمعه من ميراثهم الفكري، فيستطيعون حوكمة خصوصيتهم الثقافية، تحسباً للانسحاق في الثقافات الأخرى الجافة عبر قنوات التواصل الافتراضي.

فيشكل النص الأدبي حقلاً محورياً لمعطيات التراث الفكري والثقافي للمجتمع، نراه في صور شعرية عدة وأهمها صورة وصف المكان، لأن: "المكان جزء من الهوية باعتباره انتماء للأرض ومراجعة لذاكرة الوطن هذه العلاقة التي تبدو بسيطة هي التي يقوم عليها إنتاج المكان شعرياً وفق تصورات سياسية وتاريخية وفلسفية، تمتد من خيال الصورة وآفاقها الدلالية إلى وقع المكان في الذات بارتباطاته النفسية والاجتماعية والثقافية"، وهي صورة لا تمحى بفعل مزاحمة الصور المتباينة الافتراضية، لأن النص الأدبي قادر على تمكينها في نفوسنا، ويشهد النص الأدبي على ملامحه عبر الأزمنة، على سبيل المثال كيف لنا أن نرى وصف "زقاق المدق" إذا لم ترسمه كلمات نجيب محفوظ في روايته، وهو مكان يحمل عبق التراث في كل جوانبه، فيقول:

"تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة، وأنه تألق يوماً في تاريخ القاهرة المعز؛ كالوكب الذي أعيى قاهرة أعني؟. الفاطمية المماليك؟ السلاطين؟ علم ذلك عند الله وعند علماء الآثار، ولكنه على أية حال وأثر نفيس. كيف لا وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصناديق تلك العطفة التاريخية وفهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك هذا إلى قدم باد، وتهدم وتخلخل، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذي صار مع كرو الزمن عطارة اليوم والغد!..

ومع أن هذا الزقاق يكاد يعيش في شبه عزلة عما يحرق به من مسارب الدنيا إلا أنه على رغم ذلك يضح بحياته الخاصة، حياة تتصل في أعماقها بجذور الحياة الشاملة، وتحفظ -إلى ذلك- بقدر من أسرار العالم المنطوي".

وعلى نحو ما نقرأ في أشعار البارودي، فنجد تاريخاً لأحداث العصور السالفة، في قوله:

مَضَى حَسَنٌ فِي حَلْبَةِ الشَّعْرِ سَابِقاً	وَأَدْرَكَ لَمْ يُسْبِقْ وَلَمْ يَأُلْ مُسْلِمٌ
وَبَارَاهُمَا الطَّائِي فَاعْتَرَفَتْ لَهُ	شُهُودُ الْمَعَانِي بِالنَّيِّ هِيَ أَحْكَمُ
وَأَبْدَعَ فِي الْقَوْلِ الْوَلِيدُ فَشِعْرُهُ	عَلَى مَا تَرَاهُ الْعَيْنُ وَشَيْئاً مُنَمَّنٌ
وَأَدْرَكَ فِي الْأَمْثَالِ أَحْمَدُ غَابَةً	تَبَرُّهُ الْخَطِيءُ مَا بَعْدَهَا مُتَقَدِّمٌ
وَسِرَتْ عَلَى آثَارِهِمْ وَكُرَيْمًا	سَبَقَتْ إِلَى أَشْيَاءَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

يقول د. عصام حفظ الله: "البارودي يتناص مع هذه النصوص؛ لأنه مسكن بإعادة إحياء التراث خوفاً من محاولة طمسه، أو اندثاره، أمام القوى الساسية والثقافية والفكرية القادمة مع الاحتلال الأوربي للوطن العربي آنذاك". فكيف يمكن رؤية هذا الأنساق الثقافية إلا محاكاة في النصوص الأدبية.

2- اللغة

النص الأدبي هو في الأساس نتاج لغوي، أداة الأديب التي تحمل صورته، وتتحمل بأحاسيسه وفكره موسيقاه، وألوانه، وألحانه؛ بكل خصائص اللغة (الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية)؛ وذلك لخلق عمل أدبي "والذي يحدد قيمته هو العلاقة التي تنشأ بين اللغة والتجربة الشعورية، والفروق الدقيقة التي نشأت من هذه العلاقة". فالنص الأدبي استخدام خاص للغة، فمن غير الممكن أن يفرض عصر التواصل الافتراضي على المجتمع انعكاساً للغات أخرى بالنص الأدبي، أو حتى إيجاد تماثلاً في إنتاج النص باستخدام لغات أخرى؟ إلا لوعزف الأديب وأبناء المجتمع أنفسهم عن استخدام هذه اللغة "فالأديب عضو في جماعة، هذه الجماعة هي خالقة اللغة والمفردات والرموز، لذلك لا يمكن أن يتأتى له أن يبني شكلاً أدبياً (لغوياً) خارجاً عن جماعته، فالأديب مقيد بمستوى لغوي معين يحدده الوضع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمرحلة التي يعيش فيها". خلاصة القول، النص الأدبي هو نتاج لواقع ثقافي ينتمي إليه الأديب، يخاطب مجتمعه؛ ليستثير الوعي، وينير الإدراك، يخلق الأفكار، ويعزز الثقافة، ويعين الناس على فهم شعورهم تجاه أحداث الواقع الذي يعيشونه.

3- الهوية الأدبية للنص

يقول د.عشماوي " الأدب ليس وصفاً أو تعبيراً عن حالات شعورية بقدر ما هو خلق فني تتوافر له شرائط أساسية أهمها: توافر العقل الخالق عن الأديب، ونضوجه، ووعيه بالتقاليد الأدبية التي انحدرت إليه من الماضي، وإلمامه ذوق وإحساس بالأعمال الأدبية التي سبقته، وعاصرتها"، فالصدر الذي يستقي منه الأديب تقاليده الأدبية، معارفه، مذهبته النظرية، هو الثقافة المجتمعية، فتتشكل أدواته الفنية بهذه الخصوصية، وهذا بعينه الذي يحرص عليه كل كاتب باختلاف الأزمنة، لكن ما نعايشه الآن في عصر التواصل الافتراضي يجمع بين الإيجاب والسلب في آن واحد، يفتح للأديب قنوات للاطلاع على التقاليد الأدبية في الثقافات الأخرى، لكن في الوقت نفسه يُنذر بمحو تقاليده الأدبية الخاصة بثقافة مجتمعه.

من التقاليد الفنية والتي تعد واحدة من خصوصيات النص الأدبي العربي هو البكاء على الطلل، صورة رمزية موروثه حفظها الأديب على مر العصور قرأناها في الشعر الجاهلي، نحو قول امرئ القيس:

يا دار ماوية بالحائل فالسهب فالخبتين من عاقل
صم صداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطلق السائل
ونقرأها في الشعر الإسلامي عند حسان بن ثابت يقول:
عضت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خواء
ديار من بني الحسحاس قُفّر نُعفيها الرواميسُ والسَمَاءُ
وفي الشعر الأموي نقرأها عند ذي الرمة يقول:

خليلي عوجا من صدور الرواحل بجمهور خَزَوَى فابكيا في المنازل
لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يُشفي نُجَيَّ البابل
وفي الشعر العباسي نقرأها عند أبي نواس يقول:
ما لي بدار خلت من أهلها شغل ولا شجاني لها شخص ولا طلل
ولا رسوم ولا أبكي لمنزلة للأهل عنها وللجيران منتقل
لا الحزن مني برأي العين أعرفه وليس يعرفني سهل ولا جبل
وفي الشعر الحديث نقرأها عند عبد المعطي حجازي في ديوانه(أشجار الأسمت) يقول:

يا صاحبي قفا
فالشمس قد رجعت
ولم تُعدْ بغداد
كل المقاهي انتظار
ساء ما فعلت
بنا السنون التي تمضي

وغيرها من التقاليد الأدبية كذكر اسم المحبوبة، ومناداة الدار، وذكر الأمكنة، وذكر الوشوم، والشوق، والصحب والخلان و...، وكذا الجمل الموسيقية، والجماليات البلاغية، وغيرها من التقاليد التي تشكلت عبر العصور الأدبية بألوان متعددة لكنها وفي كل زمن محتفظة بهويتها الأدبية الموروثة.

رغم ذلك قد يكون هناك ملامح للمشارك الإنساني في النص الأدبي، لأن ملامح المخزون الفكري والشعوري قد تكون متشابهة، لكن في حقيقة الأمر كل نص أدبي يعبر عن خصوصيته الثقافية يقول دنيس كوش: "لأن كانت المجتمعات الإنسانية تشترك في امتلاك المخزون الثقافي الوراثي نفسه، فإنها تتميز باختياراتها الثقافية، إذ تبتدع كل واحدة منها حلولاً مبتكرة لما يُطرح عليها من مشاكل على أن هذه الاختلافات ليست عسيرة على ردّ الواحدة منها إلى الأخرى، إذ إنها باعتبار وحدة الإنسانية وراثياً تمثل تطبيقات لمبادئ ثقافية كونية، تطبيقات قابلة للتطور وحتى إلى التحول"، وهذا ما نلمح تأثره بشكل كبير منذ بداية الانفتاح في عصر التواصل الافتراضي، فأصبحت الخيارات متعددة ومتغايرة ومتنوعة، والخيار الآن ليس جماعي وإنما فردي من وراء شاشة الاتصال الافتراضي، وهو ما يوقع تأثيره - مستقبلاً - على المتلقي في الاستجابة للنصوص الأدبية، فمن المعروف التزام الكاتب بقضايا وطنه، وما يبته في كتاباته هو صورة مجتمعه، فهل تغير مفهوم الواقع في الأذهان الفردية -الآن- سيؤثر على كتابة النص الأدبي وتلقيه؟ فهذا ما ناقشه، ونبحت معطيته، ونحذر من تبعاته في هذه الورقة البحثية.

ثانياً مسارات النسبية الثقافية للنص الأدبي في عصر التواصل الافتراضي:-

إن التواصل الافتراضي، أو ما يسمى "بالمجتمعات الافتراضية" يمثل شكلاً جديداً من أشكال الوجود الجماعي، مما يوفر مجالاً جديداً لبناء تجربة مشتركة للتفاعل البشري، وذلك من خلال الاتصالات الحاسوبية ذلك الوسيط المتاح حديثاً، والذي يسمح للأشخاص بالاتصال على الرغم من بعد مسافة جسدهم، وتجلب الناس حتماً وتلقائياً لاستخدام إمكانياتها - السلوكيات التي تجعلها ممكنة - لتلبية احتياجاتهم للاتصال البشري. علاوة على ذلك، يقدم الوسيط الجديد طرق التواصل وطرق جديدة لفعل الأشياء معاً

ووقفة تأمل للملاح هذا العصر الجديد تفضي بالعديد من التساؤلات للتفكير والتحليل على نحو: كيف ستكون طبيعة العلاقة بين الثقافات المختلفة لهذه المجتمعات؟ وهل هناك في الأصل فروق أصيلة بين هذه الثقافات؟ وكيف ستصبح الهوية الثقافية للمجموعات الإنسانية وسط اختلاط ثقافة المجتمعات البشرية في هذا العصر؟ وماذا سنشهد في ظل هذا العصر الافتراضي التعددية ثقافية، أم الهيمنة ثقافية، أم الدينامية ثقافية؟ ويُظن - الآن - أن موطن هذه الأسئلة هو أبحاث علماء الانثروبولوجيا والاجتماع.

ولكن في حقيقة الأمر، إن الدراسات الأدبية هي شريك أصيل لأن النص الأدبي من أهم المصادر للدراسات الإنسانية في أي فترة زمنية تاريخية أو آنية، وأيضا حياة المجتمع، أحداثه وحققته، أفكاره ومنجزه معتقداته وثقافته هي مضمون النص الأدبي " وإذا كانت عملية الإبداع الأدبي - في ضوء نظرية التعبير - فردية وذاتية بالدرجة الأولى، فإنها نتاج لفاعلية اجتماعية في ضوء نظرية الانعكاس التي ترى أن الإنسان كائن طبقي، وإن همومه ومشكلاته جزء من هموم الطبقة التي ينتمي إليها، لذلك فإن الأدب انعكاس للعلاقات الاجتماعية، وهو ظاهرة متطورة أي تؤثر وتتأثر بالواقع الاجتماعي، فكل منهما (الأدب والواقع) في حركة مستمرة وتفاعل دائم أيضا "

ونهتم في هذا المحور بعرض المسارات الثقافية للنص الأدبي في هذا العصر الافتراضي في ضوء التصور التي ذكرناها أعلاه، وبالبحث وجدنا أن نظرية "النسبية الثقافية" تناقش ما أحدثته "عولمة" هذا العصر في ثقافة المجتمعات الخاصة، في محاولة للوقوف على الحدود الثقافية الجديدة للنص الأدبي .

وتعد نظرية النسبية الثقافية واحدة من أهم نظريات علم الانثروبولوجيا، التي تأسست على يد (فرانز بواس)، وفكرتها مبنية على أن: "الثقافات "محددة" و "منغلقة"، بمعنى أن العالم مكون من "جزر ثقافية" لكل جزيرة ثقافتها المميزة، والمختلفة"، وتتميز هذه الثقافة الخاصة بكل مجتمع بعدد من الخصائص أهمها: أنها الموجه للسلوك الإنساني أي (نظام للأخلاق)، وأنها ذات أنماط متعددة، وتعتبر قوة للضبط الاجتماعي، وفي الوقت نفسه تتسم بوجود تشابه وسمات مشتركة بينها وبين الثقافات الأخرى. وتأتي فكرة النسبية الثقافية لتخلق فهما لهذه التعددية الثقافية قائما على عدم التمييز، بمعنى لا يوجد ثقافة خاطئة وأخرى صائبة، فكل ما هو خطأ أو صواب مرجعه قواعد الخصوصية الثقافية لهذا المجتمع، فلا يوجد على حد قول علماء الاجتماع ما يسمى بـ(التحيز الثقافي)، وإنما يوجد بين الثقافات المتعددة (نسبية ثقافية)، يقول توماس هيلاند: "علينا أن نفهم ونعي، أن عمليات التمازج الحضاري، وتزاوج الثقافات واندماجها؛ ينتج عنها ردود أفعال، وعلى المجتمع - أي مجتمع - أن يتفهم: أن من الممكن أن تكون له "هوية ثقافية آمنة مطمئنة سليمة؛ دون الحاجة إلى فرضها على الآخرين " .

ويأتي العمل الأدبي مواكبا في خطابه لكل هذه التغيرات، والحديث بالطبع يشمل أركان الأدب الثلاث: (الكاتب - والنص - والمتلقي)؛ لأن من وظيفته أن يعزز مفاهيم النظرية، وينبه مدارك المجتمع لكل هذه التغيرات، ويحقق المعادلة الموضوعية بين التمازج الثقافي، والخصوصية الثقافية، وذلك من خلال العديد من المسارات التي تحقق النسبية الثقافية للنص الأدبي في هذا العصر على النحو التالي:

- 1- الموقف الأيديولوجي للأديب نحو ثقافة مجتمعه والثقافات الأخرى.
- 2- محور الشعرية للأديب في الوصول إلى أصول الأفكار.
- 3- الإطار التشكيلي (السيمائي) للنص الأدبي بلغة إشارية منفتحة.
- 4- الإطار التركيبي للدلالات المعاني المتعددة والمتجددة والمتوالدة على مستوى الألفاظ والصور.

ثالثا: المقاربة المنهجية بين النظام الثقافي الخاص، والثقافة العولمي في النص الأدبي:

إن الأنظمة الثقافية الخاصة للمجموعات الإنسانية لا يمكن أن تتلاقى أو تتعالق أو تتقارب بشكل عشوائي، وإنما هي مرتبطة بالتواصل الاجتماعي الذي يضيء عليها الشرعية، فبينما نشأ في مجتمعنا على أنظمة ثقافية خاصة من شأنها أن توجه أفكارنا وسلوكنا، وتحدد أنماط حياتنا كأفراد؛ نجد أن قنوات التواصل الافتراضي تلعب دوراً يوازي في أهميته دور التواصل المجتمعي الحقيقي في هذا التوجيه الفكري والسلوكي، مما يفتح مجالاً لقابلية النظام الثقافي الخاص للثقافة .

ولهذا نهدف في هذا المحور مناقشة كيف لكاتب النص الأدبي - بوصفه الاجتماعي كفرد ضمن مجموعة إنسانية - أن يحافظ ويؤكد في إنتاجه الأدبي على خصوصية تجربته الشعرية التي تعد انعكاسا لخصوصيته الثقافية، في إطار الثقافة العولمي، الذي فرضته نظرية التواصل الافتراضي في عصرنا هذا؟ لهذا نقترح إجابة عن هذا التساؤل أن يطبق الكاتب مفهوم المقاربة المنهجية بين الأنظمة الثقافية المختلفة في إنتاجه النص الأدبي.

ونقصد هنا بمصطلح المقاربة، قدرة كاتب النص الأدبي الفنية على إحداث تقارب بين موضوع أدبي أو ثقافي بموضوع آخر ونعني بالمنهجية أي السلوك النظري أو العملي الذي ينبغي أن يتوخاه من أجل بلوغ غاية محددة، ويشمل المذهب والنظام والبنية التصورية، وقد يستدل من ذلك أننا نعني النص الأدبي الذي يتحول إلى إنتاج علمي قصديته المعرفية ممنهجة، مخططة بطريقة استدلالية، ولا نعني بالنص الأدبي الذي يتشكل في الخيال، ويرسم باللغة، في نظام شعوري لا واع، محسوس غير ملموس بشكل متعمد أو مقصود من الأديب أو الكاتب، وكأن إنتاج النصوص تصبح وفقا لمقتضيات العصر تكنو أدبية، ولا محالة وقتها يتخلى النص الأدبي عن جنسه وهو الفن، وهذا ليس المقصود، فلا نتطرق هنا لخصوصية النص الأدبي الفنية والجمالية.

لكن ما نعيه هو النص الأدبي الفني الذي يهتم بمدارسة الأنساق الثقافية عبر وظيفتها، وليس عبر وجودها المجرد، النص الذي لا يعبر عن حالة شعورية ذاتية فحسب، لكنه أيضاً عن الحالة الثقافية للمجتمع مصوراً (اللاشعور الجمعي)، ويمكن أن نعبر عن أمثلة من خطوات هذا المقاربة المنهجية بين النظام الثقافي الخاص، والتأقاف العولمي للنص الأدبي، وتخزينها من خصائصه - من وجهة نظرنا - وهو ما يتصور أنه على كاتب النص أن يتمثله في إنتاجه الأدبي، بغض النظر عما اعتاد عليه، في محاولة لتحقيق التناسب دون الانسحاق بين الخصوصية والتعددية الثقافية في مضمار التغيرات الجذرية، التي أوجدتها الثورة التكنولوجية في هذا العصر (التواصل الافتراضي)، بطريقة أخرى أن يعني كاتب النص بشكل مقصود بتطبيق مجموعة من الخصائص بطريقة منهجية مخططة؛ لتحقيق المقاربة المنهجية على نحو:

- 1- الترميز الدلالي Codes : وهي مجموعة العلامات أو الإشارات التي يدرجها في النص الأدبي، لتشير بشكل معني إلى عدة دلالات مختلفة.
- 2- البناء الافتراضي Construction : أي تركيب نماذج شكلية من النص الأدبي بقصد تحديد ظاهرة بعينها يحاول الكاتب وضعها تحت الفهم المباشر للقاري، في إطار التشكيل النمطي Typical Construction في تكوين العناصر الأدبية أو الفنية، والثقافية والتي تعطي لونا من ألوان التمسك بالخصوصية الأدبية والثقافية.
- 3- الاتصال الأدبي Literary Contact : محاولة التغيير في فكر الكاتب والأديب، نتيجة جملة علاقات موضوعية تحدث في فترة زمنية محددة.
- 4- المطابقة الأدبية Literary Concordance : أي إحداه توافقاً في الفكر والدلالة بين النص الأدبي في سياقه الثقافي الخاص، ونص أديب آخر.
- 5- الاتصال اللغوي Linguistic Contact : أي عملية التلاقي بين مفردات لغوية من لغة معينة ومفردات أخرى من لغة مختلفة، شرط أن لا يقف هذا الاختلاف عقبة في توصيل الأفكار والرسائل.

اعتماداً على ذلك يمكن أن يتولد انتظام بنيوي جديد للنص الأدبي، يجمع بين الحقول الثقافية المتنوعة، والخصوصية الثقافية للنص الأدبي، وينسج علاقات بينهما في مسافات متفاعلة ومتداخلة، وقد تمتد المقاربة لتشمل تشكيل أنواعاً جديدة من النصوص الأدبية، تجمع بين التعبير اللغوي، والتعبير الموسيقي، بين الصورة المجازية، والصورة الجرافيكية، الصور المنظورة و الصور المتخيلة، بين الرموز والدلالات التكنولوجية، والرموز والأساطير الكلاسيكية، فتتشارك حواسنا السمعية والبصرية في قراءة رواية تفاعلية " تتميز بتوظيفها لتقنية النص المرتبط الذي يكسر التسلسل الخطي للرواية فيجعلها متعددة المسارات مما يتيح مجالاً لتفاعل القاري". أو في قراءة رواية الواقع الافتراضي الرقمية، أو قصيدة رقمية، أو شعر تفاعلي، وغيرها من مقتضيات التواصل الافتراضي في هذا العصر.

4- الخاتمة

اهتمت هذه الورقة البحثية بدراسة الخصوصية الثقافية للنص الأدبي في عصر التواصل الافتراضي، دراسة استهدفت تقديم رؤى جديدة؛ لمواجهة تهديد الهوية العربية للنص الأدبي في خصوصيتها الثقافية، وتقاليدها الفنية؛ وذلك نتيجة لاستئصال ظاهرة العولمة في بعدها الثقافي لهذا العصر. فعرضت لأبعاد الخصوصية الثقافية للنص الأدبي العربي، ولنظرية النسبية الثقافية كطريق مشترك بين الثقافات المتنوعة، واقترحت رؤية جديدة؛ لكيفية المقاربة المنهجية بين الخصوصية الثقافية والتأقاف العولمي للنص الأدبي، ونتيجة البحث في موضوعات الورقة وجدت:

- أن النص الأدبي العربي يعاني الآن - في هذا العصر الافتراضي من تحديات عدة تواجه خصوصيته الثقافية، هذه التحديات جاءت نتيجة الخلط بين الأنظمة الثقافية، سواء من ناحية كاتب النص أو متلقيه، فالمجتمعات الافتراضية مفتوحة على مدار الوقت، وليس هناك ما يدعو للدهشة إذا هُددت حدود هويتنا الثقافية الأدبية بالانسحاق أو الذوبان في ثقافات أخرى مهيمنة.
- أن أهم الأسس لمواجهة هذه التحديات؛ الحفاظ على أبعاد الخصوصية الثقافية للنص الأدبي: (الميراث الفكري والثقافي، اللغة، الهوية الأدبية)، ولا أدعو هنا للانغلاق على الموروث دون فتح الأفق للجديد والتجديد، والاطلاع عبر النوافذ الإلكترونية على أبعاد الثقافات الأخرى، ولكن فقط دعوة للتمسك بالجذور.
- أن التواصل الافتراضي يوفر مجالاً جديداً؛ لبناء تجربة مشتركة للتفاعل البشري؛ لذلك تعد مسار نظرية النسبية الثقافية للنص الأدبي هي الأنسب؛ لأنها تخلق فهماً لهذه التعددية الثقافية قائماً على التفاعل وليس التمييز بين الثقافات، وذلك عبر تحديد الموقف الأيديولوجي للأديب، ومحور الشعرية لديه، وتحديد الأطر التشكيلية السيميائية والدلالية للنص الأدبي.
- أن الأنظمة الثقافية الخاصة للنص الأدبي، والتأقاف العولمي الذي فرضه التواصل الافتراضي لا يمكن أن تتقارب بشكل عشوائي، إذ لا بد من مقارنة منهجية، ويمكن للأديب تحقيقها في النص الأدبي من خلال: (الترميز الدلالي، البناء الافتراضي، والاتصال الأدبي، والاتصال اللغوي، والمطابقة الأدبية) وغيرها من الوسائل التي يمكن أن تخلق انتظاماً بنيوياً جديداً للنص الأدبي يجمع بين الحقول الثقافية المتعددة، وخصوصيته الثقافية، وينسج بينهما علاقات في مسافات متفاعلة ومتداخلة.

- 1- الهوية والسر؛ دراسات في النظرية والنقد الثقافي: د. نادر القاسم، دارالفراسة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2006م.
- 2- معجم مصطلحات الانثروبولوجيا والفلسفة وعلوم اللسان والمذاهب النقدية والأدبية: د. سمير سعيد حجازي، دار الطلائع للطباعة والنشر، ص 61.
- 3- نظرية الأدب: رينيه ويليك وأوستن وارين، تعريب د. عادل سلامة، دار المريخ، الرياض –السعودية 1992 ص 49.
- 4- المرجع السابق: ص 50
- 5- الخصوصية الثقافية: د.بشير عبد الفتاح، نهضة مصر، الطبعة الأولى 2007 : ص 37.
- 6- معجم مصطلحات الانثروبولوجيا والفلسفة وعلوم اللسان والمذاهب النقدية والأدبية: ص 15.
- 7- دلالات المكان في الشعر الفلسطيني بعد 1970 : جمال مجناح، رسالة دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – بجامعة الحاج لخضر، 2008 ، ص 67.
- 8- رواية زقاق المدق: نجيب محفوظ، دار الشروق، الطبعة الخامسة، 2012، ص 5.
- 9- ديوان محمود سامي البارودي : شرح عبد المقصود عبد الرحيم، ددار الجليل –بيروت/ ط، 1995 ص 499-500
- 10- التناسل التراثي في الشعر العربي المعاصر: عصام حفظ الله واصف، دار غيداء للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2011م، ص 27.
- 11- في نظرية الأدب : شكري عزيز ماضي، دار المنتخب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1933، ص 71.
- 12- المرجع السابق : ص 89.
- 13- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث: محمد زكي العشماوي، بيروت، دار النهضة العربية، 1984، ص 37.
- 14- ديوان امرئ القيس : اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، 2004، ص 141.
- 15- ديوان حسان بن ثابت: شرحه وقد م له: عبداً علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، 1994، ص 17-18.
- 16- ديوان ذي الرمة اعتنى به وشرحه غزيبه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 2006، ص 2220.
- 17- ديوان أبي نواس : دار صادر بيروت، د/ط، د/ت، ص 181.
- 18- عبد المعطي حجازي: ديوان اشجار الأسمت، ضمن الأعمال الكاملة، دار سعاد الصباح، الصفاة، الكويت، 1993، ص 576.
- 19- مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية: دنيس كوش، ترجمة د. منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 2007، ص 10.
- 20- The Wealth of Networks: How Social Production Transforms Markets and Freedom : Benkler, Yochai (2006)
p 356
- 21- المرجع السابق : ص 360
- 22- في نظرية الأدب : ص 131
- 23- مفترق طرق الثقافات : ص 25
- 24- معجم مصطلحات الانثروبولوجيا والفلسفة وعلوم اللسان والمذاهب النقدية والأدبية: ص 36
- 25- مفترق طرق الثقافات: توماس هيلاند إريكسن، ترجمة محي الدين عبد الغني، المركز القومي للترجمة الطبعة الأولى، 2012، ص 11.
- 26- محور الشعريّة poetic axa هو مصطلح استخدمه جاكسون للدلالة على محور الانتقاء (selection) ومحور التركيب (combinaison) باعتبارهما جوهر النص . معجم مصطلحات الانثروبولوجيا: ص 32.
- 27- معجم مصطلحات الانثروبولوجيا والفلسفة وعلوم اللسان والمذاهب النقدية والأدبية : ص 6.
- 28- معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية : جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر – تونس، 2004، ص 451.
- 29- ينظر معجم مصطلحات الانثروبولوجيا والفلسفة وعلوم اللسان والمذاهب النقدية والأدبية: الصفحات 41, 48, 52, 53.
- 30- The Convergence of Contemporary Critical Theory and Technology:
Landow, George 1994, p. 40 نقلا عن بحث: (تأثير الإنترنت على أشكال الإبداع والتلقي في الأدب العربي: إيمان يونس)
<https://www.researchgate.net/publication/281543457>